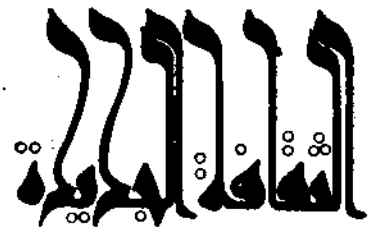

الثقافة الجديدة

مجلــة فكريــة إبداعيــة

شهرية تصدر مؤقتاً ست مرات في السنة ـــ السنة الخامسة ـــ العدد التاسع عشر ـــ 1981

المدير المسؤول : محمد بنيس.

هيئة التحرير : محمد البكري، مصطفى المسناوي، عبد الله راجع.

العنوان : ص.ب : 505، المحمدية، المغرب.

التصفيف الالكتروني : ليتو النخلة، 6، زنقة مستغانم البيضاء

السحب : مطبعة الأندلس، 499 شارع الفداء، البيضاء.

التوزيع : سوشبريس.

الاشتراكــات :

المغــرب :

الاشتراك العادي : 30 درهما
اشتراك المؤسسات : 75 درهما

الأقطار العربية واوروبا :

الاشتراك العادي : 75 درهما.
اشتراك المؤسسات : 225 درهم.

إشتراك المساندة : ابتداء من 50 درهم

تبعث الاشتراكات باسم
محمد بنيس
الحساب البريدي : 1.383.41 الرباط

1 ـــ المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها
2 ـــ المقالات التي لم تنشر لا ترد الى أصحابها.

الموضوعـات :

• دراسة

نحو فلسفة ماركسية للغة
ميخائيل باختين 3

• قصـة

المحاكمـة
صنع الله ابراهيم 19

• ملف خاص عن « الكتابة »

بيان الكتابة
محمد بنيس 34
الجنون المعقلن
عبد الله راجع 56
اثبات الكتابة ونفي التاريخ
نجيب العوفي 60
خلخلة المعروف والجاهز ــ الكتابة كفعل جسدي
محمد القاسمي ..... 72 ــ 75
في اتجاه صوتك العمودي
عبد اللطيف بنداود 79
حـالات
محي الدين بن عربي 92
هكذا كلمني الشرق (موسم الحضرم)
محمد بنيس 96
من تراثنا الحديث
نصوص لمحمد القندوسي (1861) 108

• الحرية لعبد القادر الشاوي 113

• مجلات، بيانات، مناقشات 117

ميخائيل باختين
(ف.ن. فولو شينوف

نحو فلسفة ماركسية للغة

(القسم الأول)

اتجاهان في الفكر الفلسفي ــ اللساني *

ما الذي يُكَوِّن موضوعَ فلسفة اللغة ؟ أين يمكننا العثور على هذا الموضوع ؟ ما هي طبيعته الملموسة ؟ أي منهاجية نعتمد لدراسته ؟ في القسم الأول من دراستنا، والذي خصصناه للتمهيد، لم نتعرض لهذه القضايا المحسوسة. لقد تحدثنا عن فلسفة اللغة والكلمة. لكن ماهي اللغة ؟ وما هي الكلمة ؟ طبيعي أن الأمر لا يتعلق هنا بصياغة تعريفات جامعة مانعة لهذه المفاهيم الأساسية. فصياغة من هذا النوع لا يمكن أن تتحقق إلا في نهاية بحثنا وليس في مستهله (في حدود اعتبار أن التعريف العلمي لا يمكن أن يكون أبدا كاملا). ومن اللائق أن نضع في أساس الطريق التي سنسلكها تعليمات منهاجية، وليس تعريفات إذ من الضروري قبل أي شيء، أن نقبض على موضوع بحثنا ونحصره، كما أنه من اللازم عزله عن سياقه وضبط حدوده أولا.

ليس الذكاء هو الذي يبحث، في بداية العملية الاستكشافية، بانيا القواعد والتعريفات، ولكنها العيون والأيادي هي التي تجتهد مُحَاوِلَةً حصر الطبيعة الواقعية للموضوع؛ لكن هاهي ذي العيون ــ في موضوعنا هذا ــ لا ترى شيئا، والأيادي بدورها لا تلمس شيئا. إن الأذن هي المؤهلة، ظاهريا، أفضل من غيرها فهي التي تدعى سماع الكلمة، وسماع اللغة، والواقع أن إغراءات **التجريبية الصوتية المسطحة** قوية جدا في اللسنيات. فدراسة الوجه الصوتي للدليل اللساني تحتل حيزا شاسعا ومبالغا فيه بالمقارنة مع غيرها. فهي غالبا ما تقوم بتنظيمه، وفي جل الحالات تُجْرَي هذه الدراسة دون أية علاقة بالطبيعة الحقيقية للغة، باعتبارها أنظومة إشارية ايديولوجية[1] . هكذا تبقى معضلة توضيح الموضوع الواقعي لفلسفة اللغة مستعصية عن الحل. وكلما حاولنا حصر موضوع البحث وإرجاعه إلى مركب موضوعي، مادي، متلاحم، جيد التحديد وقابل للملاحظة، إلا وضاع منا جوهر الموضوع المدروس ذاته، أي طبيعتُه الدلائلية والايديولوجية. واذا ما عزلنا الصوت كظاهرة سمعية محضة، فاننا سوف لن نستخرج منه اللغة باعتبارها موضوعا من نوع خاص فالصوت يدخل كليا ضمن اختصاص الفيزيائيين. واذا ربطنا بين أطراف العملية الفيزيولوجية المنتجة للصوت والعملية الصوتية لادراكه فإننا لن نقترب مع ذلك من هدفنا. واذا جمعنا بين النشاط الذهني (الأدلة الداخلية) للمتكلم وللسامع فإننا سنجد أنفسنا أمام عمليتين نفسيتين ــ فيزيائيتين

تجريان عند ذاتين مختلفتين من الناحية النفسية ـ الفيزيولوجية، وبمركب إصاتي فيزيائي واحد يتحقق في الطبيعة حسب القوانين الفيزيائية. ومع ذلك فإننا لن نعثر، دائما، على اللغة بصفتها موضوعا من نوع خاص، رغم أننا استنجدنا بثلاثة مجالات من الواقع : المجال الفيزيائي، والمجال الفيزيولوجي والمجال النفسي؛ وقد نتج عن ذلك، وبكيفية مرضية مجموع مركب ذو مكونات متعددة. إلا أن هذا المركب لاروح له، وعوض أن تكون عناصره المختلفة مترابطة فيما بينها بمجموعة من القوانين الداخلية التي تبعث فيه الحياة وتحوله، بحق، الى واقعة لغوية، فإننا نجدها مصفوفة فقط.

ماذا يجب أن يضاف، أكثر من ذلك. إلى هذا المجموع المعقد جدا ؟ يجب أن يدمج، قبل كل شيء، في مركب أكثر اتساعا، مركب يحتويه : أي في الدائرة الوحيدة : دائرة العلاقة الاجتماعية المنظمة. واذا كان لابد، لملاحظة عملية الاحتراق، من وضع الجسم في الوسط المناخي، فنفس الشيء كذلك بالنسبة لملاحظة ظاهرة اللغة : إذ لابد من وضع الذوات الباثة والمتلقية للصوت، وحتى الصوت نفسه في الوسط الاجتماعي. والواقع أنه من الضروري أن ينتمي المتكلم والسامع إلى نفس الجماعة اللسنية أي إلى مجتمع منظم بشكل واضح. ومن الضروري أيضا أن يكون هذان الشخصان مندمجين في وحدانية الوضع الاجتماعي المباشر أي ان ترتبط بينهما علاقة شخص بشخص فوق أرضية أشد تحديدا. ولا يكون هذا التبادل اللغوي ممكنا إلا على هذه الأرضية المضبوطة : إن أرضية للتفاهم العرضي لا تتلاءم معه ولا تساعد عليه، حتى ولو توفر التوافق أو التشارك العقلي. وعلى هذا الأساس فإن وحدانية الوسط الاجتماعي ووحدانية السياق الاجتماعي المباشر شرطان ضروريان كليا لكي يصير المركب الفيزيائي ــ النفسي ــ الفيزيولوجي، إلذي حددناه سابقا، مرتبطا باللسان والكلام، وأن يصير واقعة لغوية. إن جسمين عضويين إحيائيين، جمع بينهما في وسط طبيعي محض لا يمكنهما أن يُنْتِجا نشاطا كلاميا.

إلا أنه، نتيجة لتحليلنا، عوض أن نتوصل الى حصر موضوع بحثنا وتضييقه، كما هو مرجو، فإننا قد وسعناه وعقدناه إلى أقصى حد. والواقع، أن الوسط الاجتماعي المنظم الذي أدمجنا فيه مركبنا، ووضعية التبادل اللغوي الأكثر مباشرة، تشكل بذاتها تعقيدات خطيرة جدا فهي تتضمن علاقات متباينة تمام التباين من حيث طبيعتها، وذات واجهات متعددة، وليست كل هذه العلاقات ضرورية لفهم وقائع اللسان، وليست جميعها بعناصر مكونة للغة. وأخيرا يتطلب مجموع هذا النظام المركب من ظواهر وعلاقات وعمليات الخ... اختزالا وتوحيدا لقاسمه المشترك. ويجب أن تلتقي كل خطوطه في مركز واحد : إنها تلك الحيلة السحرية التي تشكلها العملية اللسنية.

لقد عرضنا في القسم السابق مشكلة اللغة، أي أننا أوضحنا المشكل ذاته، والمعضلات التي يتضمنها. فماذا قدمت فلسفة اللغة واللسنيات العامة من حلول لهذا المشكل ؟ وماهي الصوًى التي قد علمت بها كل واحدة منهما طريق الحل، والتي تساعدنا بالتالي على الاتجاه ؟ ليس في نيتنا القيام بتأريخ كامل لفلسفة اللغة واللسنيات العامة، ولا حتى القيام بعرض لوضعها الراهن. سنقتصر على تحليل عام للخطوط الكبرى للفكر الفلسفي واللسنيات في الأزمنة الحديثة. [2]

في فلسفة اللغة كما في التقسيمات المنهاجية المماثلة لها على صعيد اللسنيات العامة، نجد أنفسنا في حضرة اتجاهين رئيسيين يسعيان لحل مشكلنا المتمثل في **عزل وتحديد اللغة كموضوع لدراسة من نوع خاص**. يترتب عن ذلك، طبعا، تمييز جذري بين هذين الاتجاهين، فيما يتعلق بالمسائل الأخرى المطروحة في اللسنيات. سنسمي الاتجاه الأول : «الذاتية المثالية في اللسنيات» والاتجاه الثاني «الموضوعانية المجردة»[3].

يركز الاتجاه الأول أهتمامه على فعل الكلام، والابداع الفردي كأساس للسان (أي كل نشاط لغوي بدون استثناء). تشكل النفسية الفردية نبع اللسان ومصدره، وقوانين الابداع اللسني في جوهرها إنما هي قوانين فردية ــ نفسية، ــ باعتبار أن اللغة تطور متواصل وإبداع مستمر ــ وهي التي يجب على اللسني وفيلسوف اللغة أن يدرساها. إن توضيح الظاهرة اللسنية يعني تحويلها الى فعل إبداع فردي مُفكّر فيه (بل غالبا ما يكون عقلانيا)، أما كل ما يتبقى من مهمة عالم اللسنيات فلا يكتسي سوى طابع تمهيدي، بنّاء، وصفي، وترتيبي: ينحصر فقط في إعداد التفسير الشمولي للواقعة اللسنية باعتبارها متولدة عن فعل الابداع الفردي، أو في خدمة الأهداف العملية لتحصيل لغة تامة ناجزة. يصير اللسان حسب هذا الرأي، مشابها للتجليات الايديولوجية، خصوصاً في مجال الفن وعلم الجمال.

وتنحصر المواقف الأساسية للاتجاه الأول من اللغة في الاقتراحات الأربعة التالية :

1 ــ اللسان نشاط، وعملية إبداع متواصل من البناء (طاقة فاعلة) (energia) تتجسد في شكل أفعال الكلام وإنجازاته الفردية.
2 ــ ان قوانين الابداع اللغوي في جوهرها قوانين فردية نفسانية.
3 ــ الابداع اللسني إبداع معقلن مشابه للابداع الفني.
4 ــ تبدو اللغة، باعتبارها نتاجا ناجزا (ergon) ونظاما قارا (المعجم والنحو، والصوتيات)، مستودعا جامدا، مثل جثة الابداع اللسني المتجمدة، التي أنشأها اللسنيون، بكيفية مجردة، لهدف التحصيل العملي عليها كأداة جاهزة للاستعمال.

لقد كان (فيلهلم هامبولدت) من بين الممثلين الأكثر شهرة لهذا الاتجاه، فهو واضع أسسه. بل إن التأثير الذي حظي به الفكر الهامبولدتي القوي تجاوز بكثير حدود الاتجاه الذي وصفنا منذ حين. ويمكن القول بأن اللسنيات التي جاءت من بعده كلها خاضعة، وحتى أيامنا هذه، لتأثيره الحاسم. إن الفكر الهامبولدتي جميعه لا يدخل في اطار الاقتراحات الأربع التي بينا آنفا، فهو أرحب وأعقد، ويحتوي على كثير من التناقضات؛ ولهذا السبب كان (هامبولدت) معلم ورائد تيارات تتناقض فيما بينها بشكل عميق. ومع ذلك فان النواة الرئيسية لأفكاره تشكل التعبير الأقوى والأعمق عن الاتجاهات الأساسية للمدرسة التي حددنا[5]. أمّا الممثل الأكثر شهرة لهذه المدرسة في الأدب اللسني الروسي فهو (أ.أ.بوتبنيا) والحلقة المكونة من تلاميذه[6].

ولم يصل المتأخرون جدا، من معتنقي الاتجاه الأول، الى سبر عمق نظرات (هامبولدت) وتركيبه الفلسفي، فقد ضعفت هذه المدرسة الفكرية جدا، بسبب تحولها إلى نمط من التفكير الوضعي والنزعة التجريبية المسطحة. إننا لا نعثر لدى (ستينطاهل) على أي شيء من عظمة

(هامبولدت). وتصلنا عوض ذلك موجة هائلة من التنظيم المنهاجي. وبالنسبة (لستينطاهل) أيضا، تنبع اللغة من النفسية الفردية، بينما تبقى قوانين النحو اللسني قوانين نفسانية[7].

ولا نعثر في النزعة النفسانية التجريبية (لبوندت)، ولا عند تلامذته، على أسس المدرسة الأولى، إلا في صورة باهتة جدا. ويتلخص مذهب (بوندت) في أن كل الوقائع اللغوية بدون استثناء ــ قابلة لتفسير مبني على علم النفس الفردي وعلى أساس إرادوي[8]. حقا انه، مثل (ستينطاهل)، يعتبر اللغة انبثاقا عن (نفسية الشعوب) (Völker psychologie) أو « علم النفس السلالي »[9]. وتتكون نفسية الشعوب البوندتية من عملية تجميع النفسيات المتفرقة للأفراد، فهي وحدها، في نظره،لها حق الولوج إلى الواقع في كليته.

كل هذه التفسيرات المنصبة على الوقائع اللسنية، والأساطير، والدين، تعود الى تفسيرات نفسية صرفة. فبوندت لا يعترف بوجود مجموعة من القوانين النوعية، والاجتماعية المحضة، الملازمة لكل دليل أيديولوجي ، والتي لا يمكن إختزالها الى بعض القوانين الفردية النفسية.

لقد بدأ الاتجاه الأول يزدهر حاليا، من جديد، ــ سيما وقد تخلى عن الطرق الوضعية ــ وشرع في توسيع رؤيته لهذه القضايا، وذلك في إطار مدرسة (فوسلر). وليس من منازع في أن هذه المدرسة التي سميت بـ **(الفيلولوجية المثالية الجديدة)**(Idéalistche Neuphilologie) تشكل أحد أكثر الاتجاهات خصبا في الفلسفة ــ اللسنية المعاصرة. إن الاسهام الايجابي والأصيل الذي شارك به تلامذتها في اللسنيات (الدراسات الرومانية والجرمانية) يكتسي هو الآخر أهمية كبرى. ويكفي أن نذكر إلى جانب (فوسلر) ذاته تلامذة من أمثال (ليوسبيتزر) و (لورسك)، و (ليرتش) الخ... سنستشهد بكل واحد منهم مرات متعددة.

إن الاقتراحات الأربعة الأساسية للمدرسة الأولى، والتي عرضناها سابقا، يمكن ان تلخص بكيفية صائبة كل المفهوم اللسني ــ الفلسفي لفوسلر ومدرسته. وتتميز هذه المدرسة أساسا ، بـ **رفضها القاطع والمبدئي للاتجاه الوضعي في اللسنيات**، تلك الوضعية التي لا ترى أبعد من الأشكال والصيغ اللسنية (وخصوصا الصوتية منها فهي الأشد وضعية) ومن أن الفعل النفسي ــ الفيزيولوجي هو الذي يولدها[10] ومن هنا انبثق **المكون الايديولوجي الدال** للسان واحتل الصدارة، وينكشف المحرك الرئيسي للابداع على أنه هو «الذوق اللسني» الذي ليس سوى تنويع خاص للذوق الفني. والذوق اللسني هو بالضبط تلك الحقيقة اللسنية المطلقة التي تمنح الحياة للسان ، والتي يحاول عالم اللسنيات جاهدا اكتشافها في كل واقعة لسنية، بهدف إعطاء تفسير موافق لهذه الواقعة. يقول (فوسلر) :

> «وحده يستطيع أن يطمح إلى الطابع العلمي، تاريخ للسان يتفحص التراتبية السببية الذرائعية كلها، وهدفه الوحيد أن يعثر فيها على نظام جمالي، حتى يمكن للفكر اللسني، والحقيقة اللسنية، والذوق اللسني، والعاطفة اللسنية ــ أو كما يقول هامبولدت، الشكل الداخلي للسان عبر تحولاته المشروطة بالعوامل الفيزيائية، السياسية، والاقتصادية والثقافية عموما ــ أن تصير واضحة ومفهومة»[11].

وهكذا يرى (فوسلر)، بأن العوامل التي تحدد بشكل أو بآخر وقائع اللسان (الفيزيائية، والسياسية والاقتصادية الخ..) ليس لها من معنى مباشر بالنسبة للسني، فالشيء الوحيد الذي يهمه هو المعنى الفني لواقعة لسنية معينة. هذا هو المفهوم الذي يكونه عن اللسان، وهو مفهوم جمالي محض. يقول (فوسلر) : « إن فكرة اللسان ذاتها من حيث الجوهر هي فكرة شعرية ؛ ولحقيقة اللسان طبيعة فنية. إنه الجميل، وقد مُهِرَ بالمعنى [12].

ونفهم مما سبق أن **فعل الإبداع الفردي للكلام** sprache als rede هو الذي سيشكل بالنسبة لفوسلر الظاهرة الأساسية والواقع الأساسي للسان، وليس النظام اللسني المكتمل، بمعنى جماع السمات الصوتية والنحوية وغيرها. ويترتب عن ذلك أن تجعل وجهة نظر تطور اللسان أهمَّ شيء، في كل فعل كلامي، هو بالضبط التحقيق الأسلوبي والتغيير في الصيغ والأشكال المجردة للسان، تلك الصيغ والأشكال ذات الطابع الفردي التي لا تمس سوى إنجاز الكلام، وليست الصيغ النحوية القارة، الفعلية والمشتركة بين كل الأقوال المنجزة في ذلك اللسان المعين هي التي تكتسي الأهمية.

ووحده هذا التفرد الأسلوبي للسان في المَقُول يَكُونُ تاريخيا ومُنْتِجاً فعلا. وهنا بالضبط حدث تطور اللسان، ذلك التطور الذي خنقه التقعيد النحوي فيما بعد. **لقد كانت كل واقعة نحوية، في بداية الأمر، واقعة أسلوبية.** وهذا هو مصدر فكرة (فوسلر) القائلة بـ **أولوية الأسلوب عن النحو**[13]. هكذا تتموقع غالبية البحوث المستوحاة من المذهب الفوسليري في حدود اللسنيات (بمعناها الضيق) والأسلوبية. ويسعى الفوسليريون جاهدين ومدققين لاكتشاف الجذور الايديولوجية الدالة في كل صيغة أو شكل نحوي[14].

من الملائم أن نذكر أيضا، ضمن الممثلين المعاصرين للاتجاه الفلسفي ــ اللسني الأول، الفيلسوف والناقد الأدبي الايطالي بنيديتو كروشي لتأثيره القوي على الفكر الفلسفي ــ اللسني والنقد الأدبي في أوربا. وأفكاره قريبة، في جوانب متعددة، من أفكار (فوسلر).. فهو أيضا يرى أن اللسان يشكل ظاهرة جمالية. ان كلمة «تعبير» هي قاعدة مفهومه للسان ومصطلحه ــ المفتاح. وكل تعبير هو أولا، وقبل كل شيء، ذو طبيعة فنية. والنتيجة هي أن اللسنيات، بوصفها علما أمثل للتعبير، تتصادف مع علم الجمال، ويترتب عن ذلك، بالنسة لكروشي، أن يكون فعل الكلام الفردي ، هو أيضا، الظاهرة الأساسية للسان[15].

ونمر الان الى التعريف بالاتجاه الثاني للفكر الفلسفي ــ اللسني. بالنسبة لهذا الاتجاه يقع المركز المُنَظِّمُ لكل وقائع اللسان، على العكس من ذلك، في **النظام اللسني أي : نظام الصيغ الصوتية والنحوية والمعجمية للسان**، الشيء الذي يجعل منه موضوع علم جيد التحديد. في حين أن اللسان يُكَوِّنُ، في نظر الاتجاه الأول، سيلا متواصل من أفعال الكلام، وهو سيل لا يبقى فيه أي شيء مستقرا، أو محافظا على هويته؛ أما بالنسبة للاتجاه الثاني فإن اللسان قوس قزح ثابت، يسيطر على هذا السيل. فكل فِعْلِ ابداعٍ فردي، وكل قول هما تعبير وحيدٌ وغير قابل للتكرار. ولكن توجد في كل قول عناصر مماثلة لعناصر أقوال أخرى مُنْتَجَةٍ في إطار مجموعة معينة من المتكلمين. إن هذه السمات **المتماثلة** هي التي تضمن وحدانية لسان ما ، وتضمن فهم متكلمي نفس الجماعة البشرية له، وهي بسبب هذا التماثل **مُقَعَّدَة** من

أجل كل إنجازات الكلام والأقوال، إنها سمات صوتية ونحوية ومعجمية.

واذا أخذنا من اللغة صوتا ما، ولتكن الوحدة الصوتية a في كلمة (raduga) (قوس قزح) فالصوت الذي أنتجه الجهاز النطقي للجسم العضوي الفردي إنما هو صوت فردي وفريد تختص به كل ذات متكلمة. فبقدر ما يوجد أشخاص ينطقون كلمة reduga بقدر ما توجدحركات a خاصة بهذه الكلمة (رغم أن الأذن لا تريد ولا تستطيع تَلَمُّسَ وضبط هذه الخصوصية). نجد في نهاية المطاف أن الصوت الفيزيولوجي (أي الصوت الذي ينتجه الجهاز الفيزيولوجي الشخصي) صوت فريد أيضا مثل فرادة بصمة فرد ما، فريد مثل التركيب الكيميائي الشخصي لدم كل فرد (رغم أن العلم لم يصل بعد إلى مستوى تحديد الصيغ الفردية للدم).

ومع أن هذه الخصائص الفردية لصوت a مشروطة بالشكل الفريد لألسنة (اللسان كعضو) وسقوف أفواه، وأضراس الذوات المتكلمة (مسلمين بأننا نمتلك القدرة على ضبط وتثبيت هذه الخصوصيات) فهل يمكن اعتبارها جوهرية من وجهة نظر اللسان ؟ طبعا، لا أهمية لها.اذ أن الأساسي هو الهوية المقعَّدة لهذا الصوت في كل الكيفيات التي تنطق بها كلمة raduga. ان هذا التطابق المقعد بالضبط هو الذي يشكل (مادام لا يوجد تطابق واقعي) وحدانية النظام الصوتي « للسان (في الاطار التزامني)، ويكفل فهم الكلمة من طرف كل أعضاء المجموعة اللسنية. ويشكل هذا الصوت a واقعة لسنية وموضوعا لسنيا من نوع خاص، لأنه مُحَدَّدٌ بالاعتماد على معيار.

ويتسع ذلك لينطبق، شرعيا، على كل العناصر اللسنية الأخرى. حتى إننا سنجد في كل مكان من اللسان التطابقَ المقعَّد نفسه أي تطابق الأشكال اللسنية (الخطاطات النحوية مثلا) ــ جنبا الى جنب مع التحقيق الفريد واللامتكرار للتطبيق الذي يقوم به الفرد لصيغة أو شكل ما من فعل الكلام، هذا الفعل الفريد بدوره. الواقعة الأولى جزء لا يتجزأ من النظام اللسني، والواقعة الثانية ترتبط بالعمليات الكلامية الفردية، التي تتحكم فيها (من وجهة نظر اللسان كنظام) عوامل فيزيولوجية وذاتية نفسية محتملة، لا يمكن عرضها وتحليلها بدقة.

وواضح أن النظام اللسني، بالمعنى المحدد آنفا، مستقل تمام الاستقلال عن كل أفعال الابداع الفردية وعن كل النيات والمقاصد، ولا يمكن أن يتعلق الأمر، حسب وجهة النظر الثانية، بإبداع لسني معقلن تقوم به الذات المتكلمة[16]. فاللسان يتعارض مع الفرد لأنه معيار حاسم لا يمكن تحطيمه، وما على الفرد سوى أن يتقبل اللسان كما هو. وفي حالة ما اذا لم يدمج الفرد هذه الصيغة اللسنية أو تلك باعتبارها معياراً حاسماً، فإنها تنعدم بالنسبة اليه لتصير مجرد احتمال وإمكان في جهازه النفسي ــ الفزيائي الفردي. فالفرد يتسلم من المجموعة المتكلمة نظاما لسنيا جاهزا كاملا مسبقا، وأي تغيير يحدث داخل هذا النظام يتجاوز حدود وعيه الخاص. ولا يصير الفعل الفردي لنطق صوت ما فعلا لسنيا الا في نطاق ارتباطه بنظام لسني ثابت (في لحظة معينة من تاريخه) وحاسم بالنسبة للفرد.

ماهي القوانين التي تتحكم في النظام الداخلي للسان ؟ إنها قوانين **متأصلة ونوعية** لا يمكن اختزالها أو تقليصها إلى أية قوانين ايديولوجية، كيفما كانت فنية أو غيرها. إن كل

أشكال اللسان وصيغه، اذا نظر إليها في لحظة محدَّدة، (أي على المستوى التزامني) يتوقف بعضها على البعض الآخر بشكل حتمي وتتكامل فيما بينها، وتكون من اللسان نظاما مُبَنْيناً خاضعا إلى قوانين لسنية صرفة. وعلى العكس من القوانين الايديولوجية ــ التي لها علاقة بالعمليات المعرفية والابداع الفني الخ... ــ **لا يمكن أن تكون تابعة ومتعلقة بالوعي الفردي.** وإن نظاما كهذا يتحكم على الفرد أن يتقبله في كليته ويستوعبه كما هو. ولا محل هنا لبعض التمييزات والفروقات الايديولوجية ذات الطابع القيمي مثل : إنه قبيح أو أفضل، أو جميل أو كريه الخ... إذ لا يوجد في الواقع سوى مقياس لسني واحد : صائب أو غير صائب. ويجب فضلا عن ذلك ــ حسب مراسيم التصحيح اللسني، الاقتصار فقط على فهم الالتزام بمعيار معين للنظام المعياري للسان. ولا يمكن بالتالي أن نتكلم عن « ذوق لسني » ولا عن حقيقة لسنية. فالفرد يعتبر هذه القوانين اللسنية اعتباطية أي أنه لا مبرر لها لكي تكون طبيعية أو ايديولوجية (فنية مثلا). وهكذا لا توجد علاقة سهلة بين الوجه الصوتي للكلمة وبين معناها كما لا يوجد توافق ذو طبيعة فنية. وإذا كان اللسان ــ باعتباره مجموعة من الصيغ ــ مستقلا عن كل دافع إبداعي وعن كل نشاط صادر عن الفرد فإنه سيكون بالتالي نِتَاجَ إبداع جماعي، وظاهرة اجتماعية، ولهذا السبب يكون معياريا لكل فرد، مِثْلَهُ في ذلك مثل أي مؤسسة اجتماعية.

ورغم ذلك فإن هذا النظام اللسني، الفريد والقار من الناحية التزامنية، يتحول ويتطور ضمن عملية التطور التاريخي لمجتمع لسني معين، ذلك لأن الهوية المقعَّدة للوحدة الصوتية، بالشكل الذي وضعناها عليه، متغيرة ومتباينة حسب مختلف عصور تطور لسان ما. ومجمل القول أن للغة تاريخها. فما هي الفكرة التي يمكن تكوينها عن هذا التاريخ حسب وجهة نظر الاتجاه الثاني ؟

إن الواقعة الأكثر دلالة بالنسبة لهذا الاتجاه الفلسفي ــ هي الهوة التي تفرق بين **تاريخ النظام اللسني المقصود وبين المقاربة اللاتاريخية التزامنية.** إن البرهان الأساسي الذي يورده الاتجاه الثاني يجعل من هذه الهوة الجدلية هوة يستحيل عبورها.

ليس هناك ما يجمع بين المنطق الذي يحكم ويسود نظام الصيغ اللسنية في لحظة معينة من التاريخ وبين منطق (بل غياب منطق) التطور التاريخي لهذه الصيغ والاشكال. انهما منطقان مختلفان. أو على الأصح، اذا ما اعتبرنا احدهما هو المنطق فالأولى أن يعرف الآخر بأنه ليس منطقا، أي أنه النفي غير المشروط للمنطق المُتَقَبَّل.

والواقع أن الاشكال والصيغ التي تكون النظام اللسني تتوقف على بعضها البعض في غير استقلال، وتتكامل فيما بينها كعناصر الصيغة الرياضية الواحدة. فتغيير عنصر واحد من عناصر النظام يخلق نظاما جديدا، مثلما يخلق تغيير عنصر في الصيغة، صيغة جديدة. ان العلاقة والقواعد التي تحكم الأواصرالرابطة بين عناصر صيغة معينة لا يمكنها أن تشمل ما يربط النظام أو المعادلة المقصودة بنظام آخر أو صيغة أخرى يأتيان من بعدهما.

ويمكننا أن نوظف هنا مقارنة غير دقيقة ولكنها تعبر، رغم كل شيء، وبالقدر الكافي من السداد، عن العلاقة التي يقيمها الاتجاه الفلسفي ــ اللسني الثاني بتاريخ اللسان. ولتكن

المقارنة بين النظام اللساني وبين صيغة (نيوتن) لحل المخارج ذات الحدين. فهذه الصيغة تحكمها قواعد صارمة جدا، تُخْضِعُ لها كل العناصر وتثبتها. ولنفترض أن طالبا أخطأ لدى استعماله لهذه الصيغة فخلط مثلا بين الرموز وأسسها فسينتج عن ذلك معادلة جديدة لها قواعدها الداخلية (ومن البديهي ألا تصلح هذه المعادلة لحل المخارج ذات الحدين التي وضعها (نيوتن)، لكن ليس لذلك أهمية بالنسبة للمقارنة التي نقوم بها). لا توجد بين الصيغة الأولى والثانية أية علاقة رياضية بتاتاً تشبه تلك التي تحكم العلاقات الداخلية لكل صيغة رياضية.

في اللسان، تجري الأمور بالكيفية ذاتها تماما. فالعلاقات النظامية التيْ تربط بين صيغتين لسنيتين في النظام (في حالته التزامنية) مغايرة كل المغايرة للعلاقات التي تصل بعض هذه الصيغ بصورتها المتحولة في مرحلة تاليةمن التطور التاريخي للسان. ان الجرمانية السابقة للقرن 16 كانت تصرف : ich was-wir waren; أما الالمانية المعاصرة فتصرفها كالتالي : ich war-wir waren ; وهكذا تحولت ich was لتصير ich war. وكل هذه الصيغ : wir waren-ich war و wir waren-ich was ترتبط فيما بينها بعلاقة لسنية نظامية، إنها ألفاظ يكمل بعضها البعض الآخر. ويتجلى هذا الارتباط وهذا التكامل على الخصوص في تصريف فعل واحد حسب العدد : المتكلم المفرد، وجمع المتكلمين. وتوجد بين wir waren - ich war من جهة وبين ich was (ق 15 و 16) و ich war (المعاصرة) من جهة أخرى، علاقة مختلفة لا تشبه في شيء العلاقة الأولى. لقد تكونت صيغة ich war عن طريق القياس على wir waren. وعوض ich was، فقد تُوُصِّلَ تحت تأثيرwir waren (ونائب فاعل الفعل المبني للمجهول هم أشخاص معزولون عن بعضهم البعض) إلى إبداع ich war[17]. هكذا اكتسبت الظاهرة صبغة جماهيرية والنتيجة أن خطأً فرديا تحول إلى معيار لساني.

وبهذه الكيفية توجد بين العلاقتين :

1) wir waren - ich was (في الإطار التزامني للقرن 15) أو ich war wir waren (في الإطار التزامني للقرن 19).

و 2) ich was-ich war

wir waren (باعتبار هذه العلاقة عاملا مثيراً للترميم المقارني) فروقاتٌ عميقةٌ جداً على مستوى المبادىء. فالعلاقة التزامنية الأولى تحكمها وتسيرها الأواصر اللسنية النظامية بين العناصر المتكاملة والمترابطة والمتوقف بَعْضُها على البعض الآخر. وتقف هذه العلاقة بوصفها معياراً صارماً في تضاد مع الفرد. أما العلاقة الثانية (وهي التاريخية أو التتابعية) فهي خاضعة لقوانينها الخاصة، وبدقة أكثر، لقوانين الخطأ القياسي.

إن منطق تاريخ اللسان هو منطق الأغلاط الفردية أو الانحرافات والشذوذ. فالانتقال من ich was إلى ich war يحدث خارج مجال الوعي الفردي. إنه انتقال غير إرادي، يمر دون أن يثير الانتباه، وهذا هو شرط تحققه. ولا يمكن أن يوافق العصرَ الواحدَ سوى معيار لسني واحد، سواء ich was أو ich war. إن الشذوذ وحده يحتل إلى جانب المعيار. لكن لا محل لمعيار آخر مناقض (لهذا يستحيل أن تكون هناك «مأساة» لسنية). واذا لم يُدْرَك الشذوذ عن القاعدة، بوصفه خرقا لها، فلم يقع تصحيحه بالتالي، واذا توفرت الأرضية

الملائمة لتعميم الخطأ (ستكون الأرضية الملائمة، في هذه الحالة، هي المقارنة والقياس) فان هذا الانزياح يصير هو المعيار اللسني الجديد.

هكذا يتضح عدم وجود أي علاقة ولا أي شيء مشترك بين منطق اللسان، كنظام للصيغ، وبين منطق تطوره التاريخي. فالدائرتان تحكمهما قوانين مختلفة تمام الاختلاف، وعوامل متنافرة أشد التنافر، كما أن الشيء الذي يجعل اللسان دالا ومتناسقا ومتماسكا ضمن الاطار التزامني نراه مستبعدا وغير ذي نفع في الاطار **التابعي**. إن حاضر اللسان وتاريخه لا يفهمان بعضهما البعض بل عاجزان عن التفاهم.

إننا نلاحظ الاختلاف العميق جدا، في هذه النقطة بالضبط، بين الاتجاه الأول والاتجاه الثاني لفلسفة اللسان. اذ يكمن جوهر اللسان، بالنسبة للأول، في تاريخه. وليس منطق اللسان، قطعا هو منطق تكرار الصيغ المتجسدة في قاعدة أو معيار، ولكنه يتجلى، أساسا في التجديد المستمر وفي اصطباغ هذه الصيغ بالصبغة الفردية عبر أقوال فريدة من حيث الأسلوب، وغير قابلة للتكرار. **فواقع اللسان يشكل أيضا صيرورته**. هناك اتحاد كلي يصل بين لحظة خاصة من لحظات حياة اللسان وتاريخه. ففي كلا الجانبين تسود نفس الحوافز الايديولوجية. وكما يقول (فوسلر) «إن الذوق اللسني يخلق وحدانيّة اللسان/في لحظة معينة. وبنفس الشكل يخلق ويضمن وحدانية صيرورته التاريخية» ويحدث الانتقال من صيغة لسنية الى أخرى، أساسا، في حدود الوعي الفردي، ذاك لأن كل صيغة نحوية، كما يرى (فوسلر) وكما سبق أن رأينا، كانت في الأصل صيغة أسلوبية حرة.

ويتضح الفرق بين الاتجاهين، تمام الوضوح من خلال مايلي : لم تكن الصيغ المقعَّدة والمسؤولة عن ثبوتية النظام اللسني [(العمل أو مقياسه = ergon)] ــ في نظر الاتجاه الأول ــ سوى نهايات نتنة تختلف عن التطور اللسني وعن الجوهر الحقيقي للسان. هذا الجوهر الذي يُحييه فعلُ الإبداع الفردي والفريد. أما بالنسبة للاتجاه الثاني فإن هذا النظام بالضبط، أي نظام الضيع المقعَّدة، هو الذي يصير جوهراً للسان. ولا يشكل الانحراف والتنويع بطابعهما الفردي والمبدع في الصيغ اللسنية المقعدة أكثر من حثالات لحياة اللسان (وبالضبط لثبوتيته الظاهرية) ولا أكثر من تناسقات لا طائل من ورائها وغير قابلة للادراك والضبط في نظام الصيغ اللسنية الثابت أساسا. ويمكن أن نحصر لب آراء الاتجاه الثاني في الاقتراحات التالية :

1 ــ اللسان نظام ثابت وغير متحرك لأشكال لسنية خاضعة لمعيار حاسم يتسلمه الوعي الفردي كما هو.

2 ــ إن قوانين اللسان في جوهرها، قوانين لسنية من نوع خاص تقيم روابط بين الدلائل اللسنية داخل النظام المغلق. وتكون هذه القوانين موضوعية بالنسبة **لكل** وعي ذاتي.

3 ــ لا علاقة للروابط اللسنية الخاصة بالقيم الايديولوجية (فنية، معرفية أو أخرى). كما لا يوجد أي حافز إيديولوجي في أساس الوقائع اللسنية. ليس بين الكلمة ومعناها علاقة طبيعية ومفهومة يدركها الوعي، كما لا توجد أي علاقة فنية بينهما.

4 ــ ليست أفعال الكلام الفردية ــ حسب وجهة نظر اللسان ــ سوى انحرافات أو تنويعات عارضة أو مجرد تشويهات لصيغ مقعدة. لكن أفعال الكلام الفردية هذه هي التي تفسر التحول التاريخي الذي يحدث في صيغ اللسان، ولأن هذا التحول على تلك الحالة فإن النظام يَعْتَبِرُهُ غير معقول ولا معنى له. **ولا توجد بين نظام اللسان وتاريخه علاقة ولا وحدة في الحوافز. إنهما غريبان عن بعضهما.**

سيلاحظ القارىء أن الاقتراحات الأربعة الملخصة للاتجاه الثاني من الفكر الفلسفي ــ اللساني مناقضة للاقتراحات الأربعة الملخصة للاتجاه الأول.

من الصعب جدا تتبع التقدم التاريخي للاتجاه الثاني. إذ أننا لا نعثر له، في فجر عصرنا هذا، على ممثل أو منظر يمكن أن يقارن من حيث وزنه وعظمته بهامبولدت. ولا بد من البحث عن جذور هذا الاتجاه في عقلانية القرنين 17 و 18. لأن هذه الجذور تنغرس في التربة الديكارتية.[18]. وأول من عبر عن هذه الأفكار، بكيفية واضحة جدا، هو (ليبنتز) في نظريته عن النحو الشمولي.

إن فكرة لسان **عرفي، واعتباطي** خاصية يتميز بها التيار العقلاني كله، كما يتميز أيضا بالتوازي الذي أقامه بين النظام الرمزي **اللساني** والنظام الرمزي **الرياضي**. وهو لا يعكس علاقة الدليل بالواقع، أو علاقته بالفرد الذي يولده ولكنه يعكس علاقة **الدليل بالدليل** داخل نظام **مغلق** ــ مدمج ومقبول رغم ذلك ــ يستقطب اهتمام فكر العقلانيين المنصب على الرياضيات. وبتعبير آخر فإن الذي يهمهم هو **المنطق الداخلي** لنظام الأدلة فقط؛ ويعتبر هذا الأخير، كما في الجبر، مستقلا تمام الاستقلال عن المدلولات الايديولوجية المرتبطة به. يميل العقلانيون بدورهم الى الاهتمام بوجهة نظر المتلقي، لكنهم يهملون كليا وجهة نظر المتكلم باعتباره ذاتا تعبر عن حياتها الداخلية؛ ذاك لأن الدليل الرياضي غير قابل، أكثر من غيره، لأن يُؤَوَّل على أنه تعبير عن النفسية الفردية. لقد كان العقلانيون يعتبرون الدليل الرياضي هو الدليل الأمثل، والنموذج الدلائلي الأرفع، بما في ذلك اللسان. وكل هذا نجده بعينه معبرا عنه بوضوح في فكرة (ليبنتز) عن النحو الشمولي[19].

من الملائم أن نلاحظ في هذا الصدد، بأن أسبقية وجهة نظر المتلقي على وجهة نظر المتكلم ثابتة لدى الاتجاه الثاني. لهذا السبب، واعتبارا للأرضية المختارة من طرف هذا الاتجاه، لم يسبق لمشكلة التعبير أن عولجت، ولا حتى مشكل تطور الفكر والفردية الذاتية الذي بقي غفلا، وبالشكل الذي يبدو عليه في الكلمة (إنه اهتمام رئيسي لدى الاتجاه الاول).

ولقد تبلورت فكرة اللغة كنظام أدلة اعتباطية وعرفية، وعقلانية في الجوهر، بشكل مبسط منذ القرن 18 لدى مفكري. عصر الأنوار. ظهرت هذه الأفكار التي تتكون منها الموضوعانية المجردة، في فرنسا أولا، وما زالت تجد فيها حتى الآن، الأرض المفضلة[20].

ودون أن نتوقف عند المراحل الوسيطة لنمو هذه الأفكار، سننتقل بسرعة الى ذكر خصائص هذا الاتجاه الثاني في المرحلة الراهنة. وتبرز المدرسة المسماة بمدرسة (جنيف) ــ مع (فرديناند دو صوسير) ــ كتعبير أكثر تألقا عن الموضوعانية المجردة في عصرنا. وبعد

ممثلو هذه المدرسة ــ وعلى الأخص (شارل بالي) ــ من بين أعظم اللسنيين المعاصرين. لقد أضفى (صوسير) على أفكار الاتجاه الثاني وضوحا ودقة رائعين. في حين أن صياغته للمفاهيم الأساسية التي تقوم عليها اللسنيات قد أصبحت كلاسية. ثم إنه بالاضافة الى ذلك دفع ــ وبجسارة ــ أفكاره وتأملاته بعيدا حتى النهاية، سابغا على كل السمات الجوهرية للموضوعانية المجردة صفاء وتماسكا نادرين. ولهذا لم تلق مدرسة (فوسلر) في روسيا حظوة كبيرة في حين صارت مدرسة (صوسير) شعبية وذات تاثير كبير . ويمكن القول بأن غالبية ممثلي فكرنا اللسني يوجدون تحت التأثير الحاسم لصوسير وتلامذته مثل (بالي) و (سيشهاي)[21] سنتوقف طويلا لنمعن النظر في المفاهيم الصوسيرية لما لأسسها النظرية من أهمية كبرى بالنسبة للاتجاه الثاني واللسنيات الروسية. لكننا سنقتصر هنا أيضا على المواقف الفلسفية اللسنية الأساسية[22].

يضع (صوسير) مبدأ ثلاثي الأطراف : **اللغة** ، **اللسان** (كنظام للصيغ) وفعل التحدث الفردي وهو **الكلام** (٭). ان اللسان والكلام هما العنصران المكونان للغة، باعتبارها جمعا (بدون استثناء) لكل التجليات ــ الفيزيائية والفيزيولوجية والنفسية ــ التي تساهم في النشاط اللغوي. ولايمكن للغة أن تكون ــ في نظر (صوسير) ــ موضوعا للسنيات. لأنها في حد ذاتها لا تتوفر على وحدة داخلية ولا على قوانين مستقلة وغير تابعة. إنها عبارة عن خليط وعدم انسجام. ومن الصعب الاهتداء الى طريق في تركيبها المتناقض. بل من المستحيل، اذا بقينا في مجال الكلام، القيام بوصف صحيح لوقائع اللسان. فاللغة لا يمكن أن تكون منطلقا للتحليل اللسني .

فما هو طريق التقدم المنهاجي الصائب الذي يقترحه علينا (صوسير) من أجل توضيح الموضوع الخاص للسنيات ؟ لنتركه يتكلم :

« لا يوجد في رأينا إلا حل واحد لكل هذه الصعوبات (يتعلق الأمر بالتناقضات الداخلية «للغة» باعتبارها نقطة انطلاق لتحليله) : **لابد أولا من احتلال مكان في ميدان اللسان واعتباره معيارا لكل التجليات والمظاهر اللغوية الأخرى.** والواقع ان اللسان وحده ــ من بين كثير من الثنائيات ــ يُبدو قابلا لتعريف مستقل، ويعطي، بالتالي، للعقل سندا مرضيا.» (صوسير : دروس في اللسنيات العامة ص 24 ــ التشديد من طرف صوسير.)

إذن ماهو الفرق المبدئي ــ في نظر صوسير ــ بين اللغة واللسان ؟

«إن اللغة، اذا اعتبرت في مجملها، متعددة الأشكال ومتنافرة، فهي تتصل بكثير من المجالات فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية في الوقت ذاته، وتنتمي أيضا إلى الميدان الفردي والميدان الاجتماعي؛ وتستعصي عن التصنيف في أي نوع أو فئة من الوقائع الانسانية، لأننا لا نعرف كيف نستنبط وحدتها.

وعلى العكس من ذلك فإن اللسان كل في ذاته ومبدأ ترتيب وتنظيم، بمجرد أن نضعه في الصدارة ضمن الوقائع اللغوية، نُدْخِلُ نسقا طبيعيا في مجموعة غير متقبلة لأي ترتيب آخر.» (ص 25 من نفس المصدر)

وهكذا يصبح من الضروري، بالنسبة لصوسير، الإنطلاقُ من اللسان كنظام للصيغ

تعود وحدتُهُ تُحِيلَ نَفْسَهَا على معيار، وتوضيح كل وقائع اللغة عن طريق الإحالة على صيغها الثابتة والمستقلة (المُقَنَّنَة من تلقاء ذاتها).

وبعد أن ميز اللسان عن اللغة، بمعنى كل التجليات والمظاهر اللغوية، دون آستثناء، ميز أيضا اللسان عن أفعال التحدث الفردية أي أفعال الكلام :

«ونحن نفرق بين اللسان والكلام، نفرق في الوقت ذاته : أولا، ما هو مجتمعي عما هو فردي؛ ثانيا ما هو جوهري عما هو ثانوي أو عرضي إلى حدما.

ليس اللسان عملا تابعا للذات المتكلمة، إنما هو نتاج يسجله الفرد بكيفية سلبية. فهو لا يفترض أبدا أي تصميم أو تأمل مسبق، ولا يتدخل فيه التفكير إلا من أجل نشاط الترتيب والتصنيف الذي سنعالجه فيما بعد.

أما الكلام فهو على العكس من ذلك، فعل فردي إرادي وعقلي، ويجب أن نميز فيه (أولا) بين التركيبات التي تستعمل الذات المتكلمة بواسطتها النظام الاشاري للسان بقصد التعبير عن فكرتها الشخصية، (ثانيا) وبين الإوالية النفسية الفيزيائية التي تمكنها من تجسيد هذه التركيبات وإظهارها.» (نفس المرجع. ص 30.)

لا يمكن للكلام كما يفهمه (صوسير)، أن يكون موضوعا للسنيات[23]. لا تتكون العناصر الخاضعة للسنيات، في الكلام إلا من طرف الصيغ اللسنية المقعدة والبارزة فيه، أما كل ما تبقى فهو «ثانوي وعرضي.».

لنؤكد على هذه الأطروحة الصوسيرية الأساسية : اللسان يتعارض مع الكلام كما يتعارض المجتمعي مع الفردي. والكلام، على هذا الأساس، فردي بمجمله. وهنا تكمن النواة الوهمية (Proton Pseudos) لصوسير والاتجاه الموضوعاني المجرد. إن الفعل الفردي لانجاز الكلام ــ التحدث، وقد نُفِيَ نهائيا وبشكل حاسم إلى نحوم اللسنيات، يُحَصِّلُ فيها رغم ذلك على مكانة بوصفه عاملا ضروريا في تاريخ اللسان[24]. ويرى صوسير أن هذا الأخير يتعارض بحدة ــ وفقا لفكر الاتجاه الثاني كله ــ مع اللسان كنظام تزامني. ويسود الكلام في تاريخ اللسان كملك نظرا لطابعه الفردي والعرضي. لذلك تحكمه قوانين مختلفة تمام الاختلاف عن القوانين التي تسود نظام اللسان وتسيره.

«وهكذا كانت «الظاهرة» التزامنية لا علاقة لها بالتتابعية» (ص. 129).
ستهتم **اللسنيات التزامنية** بدراسة العلاقات المنطقية والنفسية التي تربط بين الألفاظ المتواجدة والمكونة للنظام، وكما يدركها نفس الوعي الجماعي .

« وعلى العكس من ذلك ستقوم **اللسنيات التتابعية** بدراسة العلاقات الرابطة بين الألفاظ المتعاقبة، والتي لا يدركها وعي جماعي واحد، ويحل بعضها محل البعض الآخر دون أن تشكل نظاما فيما بينها.» (نفس المصدر ص. 140. التشديد قام به صوسير نفسه).

ونظرات (صوسير) هذه إلى التاريخ خصائص جد مميزة للفكر العقلاني الذي لا يزال طاغيا على الاتجاه الثاني في الفكر الفلسفي ــ اللسني حتى الآن، إن التاريخ، في رأي هذا الفكر، مجالٌ غير عقلاني يشوه الصفاء المنطقي للنظام اللسني.

ولا يحتل (صوسير) ومدرسته وحدهما أعلى ذرى الموضوعانية المجردة المعاصرة. اذ نرى بجانبهما مدرسة أخرى صاعدة هي مدرسة (دوركايم) الاجتماعية. ونتعرف فيها على شخصية بارزة مثل العالم اللساني (مايه). لن نتوقف لوصف مفاهيمه، فاللسان بالنسبة له هو الآخر، لا يشكل ظاهرة اجتماعية باعتباره عملية متدرجة، ولكن لكونه نظاما قارا من المعايير اللسنية. ويرى أيضا أن اللسان بالصورة التي يبدو بها من الخارج الى الوعي الفردي، يشكل مع خاصيته الاكراهية السمات المجتمعية الأساسية للسان.

وسنضرب صفحا عن المدارس والاتجاهات اللسنية الكثيرة التي لا تدخل في إطار الاتجاهين اللذين حددنا. ومع ذلك سنقول كلمة عن النحويين الجدد الذين يُكَوِّنُونَ بحركتهم مظهرا من المظاهر اللسنية الكبرى في النصف الثاني من ق 19.

ونظرا لبعض مواقفهم، فهم يمتون بصلة القرابة إلى الاتجاه الثاني، إذ يركزون فيه على المكون الأصغر أي المكون الفيزيولوجي. كما يعتبرون أن الفرد المبدع للسان هو في جوهره كائن فيزيولوجي. من ناحية أخرى، وفي الميدان النفسي ــ الفيزيولوجي بالضبط، سعى النحويون ــ الجدد جاهدين الى وضع قوانين لسنية منسوخة عن العلوم الطبيعية، يعني قوانين ثابتة ومنفصلة تمام الانفصال عن أي اختيار حر يقوم به الأفراد المتكلمون. هذا هو أصل فكرة النحويين الجدد عن القوانين الصوتية (لوتجيسيتزه[25]).

جوهريا، توجد في اللسنيات ــ كما في أي علم نوعي خاص ــ وسيلتان اثنتان للتخلص من مشقة العبء المترتب عن ضرورة بلورة فكر فلسفي جدي ناتج منطقيا، وقائم على مبادىء معينة، تتمثل الوسيلة الأولى في إقامة كل المبادىء دفعة واحدة على شكل مسلمات (النزعة الأكاديمية الانتقائية)؛ وتكمن الوسيلة الثانية في تنحية كل المبادىء وإعلان الواقعة أساسا ومقياسا نهائيا لكل نشاط إدراكي أو معرفي (الوضعية الأكاديمية). والمفعول الفلسفي للوسيلتين من أجل التخلص من الفلسفة يبقى هو نفسه، لأنه يمكن ــ في الحالة الثانية ــ حشو كل المبادىء الممكنة والمتصورة في الخانة المسماة ب «الواقعة» أثناء البحث. إن اختيار هذه الوسيلة أو تلك يتوقف كل التوقف على مزاج الباحث : فالانتقائيون أكثر تساهلا، أما الوضعيون فهم أكثر تشددا.

ونلاحظ في اللسنيات نتاجات كثيرة، بل حتى مدارس برمتها (المدارس بمعنى دراسة علمية تقنية) تعفى نفسها من مهمة وعبء تعيين اتجاه فلسفي لسني لها، إلا أنها بدهيا لا تدخل ضمن اطار عرضنا، وأخيرا هناك بعض اللسنيين والفلاسفة اللذين لم نشر إليهم مثل (أوطو دييتريش) (وأنطون مارتي). والذين سنعود الى الاستشهاد بهم فيما بعد خلال تحليلنا للتفاعل اللسني والمعنى.

لقد طرحنا في بداية هذا الفصل قضية توضيح وتحديد اللسان كموضوع من نوع خاص للبحث. وقد حاولنا استكشاف العلامات والصُّوَى، الموضوعة من قبل، على طريق حل هذا المشكل من طرف اتجاهات الفكر الفلسفي ــ اللسني التي سبقتنا. وفي نهاية المطاف نجد أنفسنا وجها لوجه أمام صنفين من الصوى الموضوعة في اتجاهين متناقضين جذريا،فمن جهة يتعلق الأمر بأطروحات الذاتية الفردانية ومن الجهة الأخرى بالأطروحات

الموضوعانية المجردة المناقضة لها. لكن ما الذي ينكشف أنه النواة الحقيقية للواقع اللساني ؟ هل هو فعل الكلام الفردي ــ التحدث ــ أو نظام اللسان ؟ ما هي كيفية وجود الواقع اللساني ؟ أهو التطور المبدع المتواصل أم ثبوتية المعايير المطابقة لذاتها ؟

ترجمة **محمد البكري**

هوامـش :

1 ــ يتعلق هذا أساساً بعلم الأصوات التجريبي الذي لا يدرس في الواقع أصوات اللسان، بل يعالج الأصوات التي تنتجها الأجهزة الصوتية، وتتلقفها الأذن، في استقلال تام عما تحتل من مكانة في نظام اللسان، وفي إنجاز الأقوال وإنشائها. ويجد هذا العلم صعوبات جمة في سبيل تجميع متون هائلة من المعطيات، بهدف دراستها، دون أن يتسلح، مع ذلك، بمنهاجية تساعده على الترتيب والتنظيم.

2 ــ لا توجد اليوم مؤلفات متخصصة في فلسفة اللغة. ولا نعثر على مؤلفات أساسية الا فيما يخص فلسفة اللغة واللسنيات القديمتين. مثلا ستاينتال : stainthal Geschicht des sprachwissenschaft أما فيما يخص التاريخ الأوربي فلا توجد سوى دراسات خاصة عن مفكرين ولسنيين (هامبولدت، بوندت Bundt، مارتي الخ...). - سنحدث عنها في فرصة أخرى. أما المسح الجاد، إلى حد ما، والوحيد لتاريخ فلسفة اللغة واللسنيات حتى الآن فيوجد في كتاب : أرنست كاسيرر E.Cassirer : **فلسفة الأشكال الرمزية**، المجلد الأول، اللغة، الفصل الأول «قضية اللغة في تاريخ الفلسفة». أما باللغة الروسية فإننا نجد مسحاً سريعاً ولكنه جدي للوضع الراهن للسنيات وفلسفة اللغة، وذلك في مقال ر.شور (R.Schorr Krisis Sovremennoj ceskij, v.1927,p.32-71) ويساهم م.ن. بيترسون من جهته بنظرة شاملة، رغم أنها غير تامة، للأعمال اللسنية المحتوية على مقاربة اجتماعية. ولن نورد هنا أعمالا عن تاريخ اللسنيات.

3 ــ وكما هي الحال، تقريباً، دائما مع هذا النوع من التسميات، فإن المصطلحين لا يعبران عن كل مضمون وتعقيد الاتجاهين المحددين. وسنرى أن تسمية الاتجاه الأول غير مطابقة له بكيفية خاصة. ولكننا عاجزون عن إيجاد تسمية أفضل.

4 ــ هامان Hamann وهيردر Herder سبقاه في ذلك.

5 ــ لقد عرض هامبولدت أفكاره عن فلسفة اللغة في Uber die Verschiede -)-heiten dessprachbaues) in Vorstudie zur Einleitung, zum kawiwerk, gesam, schaifte (Akadémie-Ausgube) Bd VI. هناك بحوث متنوعة عن هامبولدت. ولنذكر كتاب «فيلهلم فون هامبولدت» لمؤلفه ر.هايم (R. Heim) . وعن هامبولدت وتأثيره في اللسنيات الروسية : ب. انجلهارت B.Engelhart; A.N. Vessolousky (petragrod 1922) وقد ظهرت حديثا دراسة ذكية ودقيقة وذات أهمية كبرى. لصاحبها ج سبات (G.spätt) (:Vnutrennaja forma slova) (اللغة الداخلية) وهي دراسات وتنويعات لموضوع عالجه هامبولدت. ويحاول المؤلف أن يعثر على الجذورالعميقة للفكر الهمبولدتي

المدفونة تحت التأويلات التقليدية (هناك تقاليد عديدة لتأويل الفكر الهمبولدتي). وتبين دراسة (سبات) الذاتية، مرة أخرى مدى تعقد فكر هامبولدت وإلى حد هو مليء بالتناقضات وقابل لتنويعات مستقلة جدا.

6 ـــ مؤلفه الفلسفي الرئيسي هو (Myl'ijazvk» (الفكر واللغة)أكاديمية العلوم لقد نشر تلامذة (بوتبنيا) Potebnia المكونون لمدرسة (Kharkhov)، في مواعيد غير منتظمة مجلة تسمى (Voprosy) téorii I (psichologija tvocestva) (نظرية وعلم نفس الابداع) وفيها نجد المؤلفات التي جمعت بعد وفاة (بوتبنيا)، ومقالات تلامذته عنه. ويعرض المؤلف الرئيسي لبوتبنيا أفكار هامبولدت.

7 ـــ توجد في أساس مفهوم (ستينطاهل) النظرية النفسية لهيربارت (Herbart) الذي يحاول جاهدا أن يبني كل معطيات النفسية الانسانية انطلاقا من عناصر تحظى بتمثيل وترتبط فيما بينها بعلاقات تجميعية.

8 ـــ تصنع الارادوية حرية الاختيار كقاعدة للنفسية.

9 ـــ إن ج. سبات هو الذي اقترح مصطلح «علم النفس السلالي» عوض المصطلح المنقول حرفيا عن الألمانية Vol ket Psychologie أي نفسية الشعوب. والواقع أن المصطلح الأخير غير كاف بالمراد، ويبدو لنا أن ما اقترحه (سبات) أفضل بكثير. انظر ج. سبات : (Vvedenije V etniceskuju prichologiju) (مدخل الى علم النفس السلالي منشورات أكاديمية الفنون والآداب، موسكو 1927. ويحتوي هذا الكتاب على نقد أساسي لفكر (بوندت)، إلا أن البناء الذي يعوضه به (سبات) غير مقبول هو الآخر.

10 ـــ إن الكتاب الأول الذي عرض فيه (فوسلر) أسس فلسفته مخصص لنقد الاتجاه الوضعي في اللسنيات. وهذا الكتاب هو : (Positiuismus und idealismus in des sprachewissenchaft.) هايدلبرج 1904.

11 ـــ «نحو وتاريخ اللسان» في Logos مجلد 1. 1910 . ص 170

12 ـــ نفس المرجع ص 167.

13 ـــ سنعود الى نقد هذه الفكرة فيما بعد.

14 ـــ لقد جمعت الأعمال الرئيسية لفوسلر ـــ والمنشورة بعد الكتاب الذي ذكرنا آنفا ـــ في (فلسفة اللغة) (1920) Philosophie der sprache ويتعلق الأمر هنا بآخر منشورات فوسلر. فهي تعطي فكرة كاملة عن مفاهيمه الفلسفية واللسنيات العامة. ولنذكر من بين الأعمال اللسنية ذات الطابع المميز لمنهج فوسلر : Frankreichs Kultur im Spiegel seiner Sprachntwicklung, 1913)

ويجد القارىء بيبليوغرافيا كاملة لفوسلر، حتى سنة 1922 في مجموعة : Idealistiche Neuphilologie (Festsehrift fur Karl Vossler) التي خصصت له (1922).

ويمكن أن نقرأ باللغة الروسية مقالين عنه : المقال الذي ذكرنا سابقا ومقال (علاقات تاريخ الألسن وتاريخ الآداب) في Logos ـــ 1912 1913، مجلد 1 ـــ 2 . ويعطي المقالان فكرة عن مرتكزات نظرية (فوسلر). اما نظرات فوسلر وتلاميذه فلم يسبق أن نوقشت في الأدب اللسني الروسي. وتوجد إشارة لذلك فقط في مقال (بيرمونسكي) عن النقد الأدبي المعاصر في ألمانيا. (الشاعرية، مجموعة 3، 1927 («آكاديميا») ولا يشير (ر. شور) في المسح الذي ذكرنا له آنفا، الى (فوسلر) الا في التقديم. وسيؤدي بنا المطاف فيما بعد إلى التحدث عن أعمال مُكمِّلي (فوسلر) والذين تظهر لديهم اهتمامات فلسفية ومنهجية.

15 ـــ يوجد باللغة الروسية القسم الأول من علم الجمال لبنيديتو كروشي «علم الجمال كعلم للتعبير وكعنصر في اللسنيات العامة» موسكو 1920. ونكتشف فيه النظرات العامة لكروشي حول اللسان واللسنيات .

* لم يكن مصطلح «فونولوجيا» مستعملا آنئذ، سيما وأن هذا الكتاب سابق لأعمال الحلقة الفونولوجية في براغ (ملاحظة للمترجمة الفرنسية).

16 ـــ إلا أن أسس الاتجاه الثاني في الفكر الفلسفي ـــ اللسني ـــ على أرضية العقلانية بالشكل الذي عرضناها به ـــ ملائمة تمام الملاءمة لفكرة لسان كوني عقلاني موضوع عن طريق الاصطلاح والاصطناع. سنرى ذلك فيما بعد.

17 ــ مازال الانجليز يستعملون حتى الآن I was

18 ــ لا شك في وجود علاقة داخلية تربط في العمق بين الاتجاه الثاني والفكر الديكارتي وبين الرؤية العامة التي نظرت بها الكلاسية الجديدة الى العالم، مع تقديسها للشكل الجامد، العقلاني والثابت. لم ينشر (ديكارت) ذاته أي شيء عن فلسفة اللغة ولكن توجد في مراسلاته ملاحظات متميزة. راجع في هذا الصدد الفصل الذي أشرنا إليه من كتاب (كاسيرى).

19 ــ ويمكن التعود على هذه الأراء التي عبر عنها (ليبنتز) بقراءة المؤلف الرئيسي لكاسيريه : Leibniz system in seinem wissenschaftlichen Grundlager, marburg 1902

20 ــ من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن الاتجاه الأول ــ على عكس الاتجاه الثاني ــ قد نما ومازال يواصل نموه في ألمانيا.

21 ــ يتموضع كتاب (ر. شور) اللغة والمجتمع) (Jazyk i obscestvo) موسكو 1926 ــ في إطار فكر مدرسة (جنيف). وفيه يدافع (شور) دفاعا حارا عن آراء (صوسير) الأساسية. ونفس الشيء في المقال الذي سبق أن أشرنا إليه «أزمة اللسنيات المعاصرة» فإن (فينو كرادوف) يتخذ فيه هو أيضا موقع المنافس لمدرسة (جنيف). مدرستان لسنيتان روسيتان تشكلان التعبير الصارخ عن الشكلانية في اللسنيات وتندمجان كليا في اطار الاتجاه الثاني كما وصفناه إنهما مدرسة (فورتيناطوف) ومدرسة قازان (كروتشيفسكي وبودوان دوكورتناي).

22 ــ لقد نشر المؤلف الاساسي لصوسير بعد موته من طرف تلامذته وهو المعنون بدروس في اللسنيات العامة (1916). ونستشهد بطبعة 1922. ونتعجب كيف أن هذا الكتاب ــ رغم شدة تأثيره لم يترجم بعد الى الروسية، يمكن العثور على عرض لآراء صوسير في مقال (شور) السابق وفي مقالة (بيترسون)(اللسنيات العامة) 1923 المجلد السادس.

* كل استشهادات الفرنسية من كتاب صوسير منقولة بالفرنسية في النص الأصلي.

ولقد قام باختين بتحث كلمة مركبة هي yazuk-reé (اللغة) كمعارض لـ Jazyk kak systema forme (اللسان) و Vyskazyvauje (التحدث أو فعل الكلام وإنجازه) (ملاحظة للمترجمة الفرنسية).

23 ــ حقاً إن (صوسير) يقبل إمكانية لسنيات أخرى، هي لسنيات الكلام ولكنه لم يوضح في أي شيء يمكن أن تتمثل. وهاك ما قاله بهذا الصدد : «يجب الاختيار بين طريقين لا يمكن أن يسلكهما الانسان في الوقت ذاته ؛ ويجب انتهاج كل واحدة منهما على حدة. وبالامكان المحافظة على اسم لسنيات الكلام. ولكن لا يجب خلطه مع اللسنيات المعنية، أي تلك التي تجعل من اللسان موضوعها الوحيد.» (نفس المرجع ص. 39).

24 ــ يقول (صوسير) : «إن كل ما هو تتابعي في اللسان لا يكون كذلك إلا عن طريق الكلام. ففي الكلام تكمن بذرة كل التحولات» (نفس المرجع ص. 138).

25 ــ يعرض (م.ن. بترسون) آراء (مايه) في ترابط مع أسس المنهج الاجتماعي عند دوركايم، وذلك في مقالته التي أشرنا إليها سابقاً «اللسان كتظاهرة مجتمعية» أنظر ما يلي ذلك.

26 ــ أهم أعمال النحويين الجدد هي (أوسطوف)
Das physiologosche und psychologische Moment in der sprachlichen Formenbildung Berlin 1879; Brugman et Delbruck, Grundriss des vergleichenden Grammatik derindogermanischen sprachen (خمس مجلدات 1886).

وبرنامج النحويين الجدد معروض في تمهيد كتاب (أوسطوف بروغمان).
osthoff et Brugmann Morphologische Untersuchugen. leipzig 1878.